ثقافةُ السَّلامِ في الأديانِ بَينَ الواقعِ وَالمَأمُولِ

بولس مطر(*)

أيُّها الحفلُ الكريمُ.

يُشرِّفُنَا شَرَفًا كبيرًا أَن نَلتَقِيَ لِلمَرَّةِ الثَّالثةِ علىٰ التَّوَالِي، وَبِدَعوةٍ مَشكُورَةٍ مِن سَماحةِ شيخ الأزهر الشَّريف الدكتور أحمد الطيِّب، الَّذي نُحيِّيهِ بِأَجملِ تَحيَّاتِ الإِكبارِ وَالمحبَّةِ، وَأَن يَكونَ لِقَاؤنَا هذا مُخَصَّصًا لِلبَحثِ في شُئونِ السَّلامِ، وَمِنهَا ما يتعلَّقُ بِدَورِ الأَديانِ في بِنَاءِ ثَقافةِ السَّلامِ، في كلِّ وَطنٍ مِن أَوطانِ الأَرضِ، وَلَدَىٰ كلِّ جَمَاعةٍ مِن جماعاتِ البَشَرِ.

علىٰ أَنَّ خَيطًا مِن نُورٍ يَربطُ هذه المُؤتَمَراتِ الثَّلاثةَ، وَيفسحُ في المَجَالِ أَمامَ النَّاظِرِ في الأَعماقِ لِيُدرِكَ التَّقدُّمَ المَنشُودَ مِن وَراءِ انعقادِ كلٍّ مِنهَا، وَالتَّدرُّجَ في عَرضِ مَوَاضيعِهَا وُصُولًا إِلىٰ مَا نَحنُ بِصَدَدِهِ اليومَ، أَيْ إِلىٰ نِشدَانِ السَّلامِ الَّذي لَن يَكونَ حَقِيقيًّا ولا كامِلًا إِلا بِمقدَارِ مَا يَكونُ عَطيَّةً مِن اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ لِلمُؤمنينَ بِهِ جميعًا، وَلِسائِلِي رَحمتِهِ الكُبرَىٰ علىٰ عِبَادِهِ، بِاستنارةِ القلبِ وَتَواضُعِ الضَّميرِ.

فَالمُؤتمرُ الأَوَّلُ في العام ٢٠١٤م رَفضَ أَن يَكونَ الإِرهابُ قائمًا بِاسمِ الإِسلامِ أَو بِاسمِ أَيِّ دينٍ آخر، وَنَدَّدَ بِمثلِ هذه التَّصرُّفاتِ الَّتي قالَ فيها: «إِنَّها آثِمةٌ عَقيدةً، وَعاصِيةٌ مَسلكًا».

وَالمُؤتمرُ الثَّاني الَّذي انعَقَدَ في شَهرِ شُباط (فبراير) مِن هذا العامِ ٢٠١٧م، أَكَّدَ أَنَّ المُواطنةَ بَينَ النَّاسِ هِي مِفتاحُ النَّجاحِ لِكلِّ عَيشٍ مُشتَرَكٍ يَجمعُ بَينَ أَهلِ الأَديانِ

في بوتَقَةٍ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ واحدةٍ، وَقَد أَشارَ إِلىٰ أَنَّ هذه المُوَاطنةَ لَيسَت دَخِيلةً علىٰ الإسلامِ، بَلْ هي نَابِعةٌ مِن صُلبِهِ، إِذْ أَقامَهَا النَّبيُّ العَربيُّ قاعدةَ حياةٍ مَع الدَّولةِ الأولَىٰ الَّتي أَنشأَهَا في المدينةِ، وَقَد جَمعَ فيها إِلىٰ المُسلمينَ مُؤمنينَ مِن المَسيحيِّين وَاليَهُودِ ضمنَ «أُمَّةٍ واحدةٍ مِن دُونِ سَائرِ النَّاسِ».

فإِذَا رَفَضنَا جميعُنا كلَّ إِرهَابٍ مُستَغِلٍّ لِلدِّينِ وَهُو منهُ بَرَاءٌ، وَإِذا قَبِلنَا بِالتَّنوُّعِ الدِّينيِّ في وَحدةِ حياتِنَا الوَطنيَّةِ وَالإنسانيَّةِ، وَإِذا أَجمَعنَا علىٰ هذه المَوَاقفِ مُسلمينَ وَمَسيحيِّينَ مِن الشَّرقِ الأَوسطِ وَمِن العالَمِ كلِّه، حَيثُ نُمثِّلُ معًا نصفَ سُكَّانِ الأَرضِ، لَوَجدنَا أَنفسَنَا علىٰ مَوعدٍ رائعٍ مَع السَّلامِ، لا، بَلْ مُتقدِّمِينَ علىٰ الدُّنيَا في حَملِ بَيَارِقِهِ، وَنَشرِ أَلْوِيَتِهِ في الرُّبُوعِ وَفِي القُلُوبِ.

نحنُ بِالحقيقةِ مُمتَلِئونَ فَخرًا وَاعتزازًا لاتِّخاذِ مُؤتمر الأزهر الشَّريف هذا البُعدَ العالميَّ، وَلِصَيرُورتِهِ مُنطلَقًا جديدًا ومُتقدِّمًا لِلحِوَارِ القائمِ بَينَ المسيحيَّةِ وَالإسلامِ، بعدَ أَن فُتِحَتِ الأَبوابُ وَاسعةً أَمامَهُ مَع الدَّعوةِ الصَّادقةِ إِليهِ مِن قِبَلِ المجمعِ الفاتيكانيِّ الثَّاني عام ١٩٦٥م في روما، وَمَع التَّرحيبِ الإسلاميِّ الصَّادقِ به، وَتَوَسُّمِهِ الخَيرَ مِنِ انعقَادِهِ.

وها هُو قداسةُ البابا فرنسيس، رَأسُ الكنيسةِ الكاثوليكيَّةِ في العالَمِ يَأتِي اليومَ إِلىٰ مِصرَ أَرضِ الكِنانةِ، وَقلبِ العُرُوبةِ النَّابِضِ، وإِلىٰ المَرجعيَّةِ الإسلاميَّةِ العالَميَّةِ الأُولَىٰ الَّتي يُمثِّلُهَا الأزهرُ الشَّريفُ لِيَلتَقِيَ بِسماحةِ شيخِ الأزهر الدكتور أحمد الطيِّب، فَيَعملان معًا، ويَدعُوَان إِلىٰ المُشاركةِ في هذا العملِ جميعَ المسيحيِّين وجميعَ

المسلمين أَينَما كانُوا، مِن أَجلِ التَّقارُبِ والتَّصافِي بَينَ أَهلِ الأَديانِ، ومِن أَجلِ تَعزيزِ التَّعاونِ والمحبَّةِ في صفُوفِ مُؤمِنِيهَا، وَإِقامةِ السَّلامِ المَبنِيِّ على العدالةِ وَإِيصالِ الحُقُوقِ إلى أَصحابِهَا مُعتَبِرِينَ أَنَّنا خُلِقنَا جميعًا مِن طِينَةٍ واحدةٍ، وأَنَّ لنا رَبًّا في السَّماءِ هُو الإلهُ الواحدُ الأحدُ الَّذي نَعبدُهُ جميعًا، وَالَّذي نحنُ إليهِ تَوَّابُون.

وإنَّ خَيرَ مَدخلٍ إلى كَلمَتِنا الخاصَّةِ في هذا المُؤتمرِ الكبيرِ حَولَ السَّلامِ، والَّتي طُلِبَ أن تَتَمحوَرَ حَولَ «ثقافةِ السَّلامِ في الأديانِ بَينَ الواقعِ وَالمَأمُولِ»، هُو ذِكرُ زيارةٍ تَأسيسيَّةٍ لِلحوارِ الإسلاميِّ - المسيحيِّ، قامَ بها في التَّاريخِ قدِّيسٌ أَرادَ بابا روما الحاليُّ أن يَحمِلَ اسمَهُ عندَ اعتِلائِهِ سدَّةَ بطرسَ هامةِ رُسُلِ المسيحِ، أَلا وَهُو القدِّيس فرنسيس الأسِّيزيُّ، مُطلِقُ الرُّهبانيَّاتِ الفرنسيسكانيَّةِ في القرنِ الثَّالثِ عشر ميلادي.

هذا القدِّيسُ الشَّهيرُ بِمَحبَّتِهِ لِلفقراءِ وَبِخِدمتِهِم بِاسمِ المسيحِ، قد تَجَرَّأَ وَزَارَ حاكمَ مِصرَ وَسُلطانَهَا الملكَ الكاملَ الأيُّوبيَّ في العام ١٢١٩م، أَيْ مُنذُ ثَمانِي مئةِ سنةٍ، أَثناءَ إحدَى حَملاتِ الفرنجة على بِلادِ الشَّرقِ.

لقد ابتَعدَ هذا القدِّيسُ عن مَوقفِ بَنِي قَومِهِ المُتَعامِلِينَ بِالسِّلاحِ مع أَهلِ الشَّرقِ، وَتَنكَّرَ لهُم؛ بُغيَةَ أَن يَلتَقِيَ لِقاءَ المحبَّةِ مع المسلمين في مِصرَ العزيزةِ، وَيَنقُلَ إليهم وَجهَ المسيحِ الصَّافيَ والمُحِبَّ، وَيَسمعَ منهم كلامَ الأخوَّةِ فَوقَ كلِّ اعتبارٍ.

لقد عَرَّضَ بذلك حَيَاتَهُ لِلموتِ عِندَ مُوَدِّعِيه وعندَ مُستقبِلِيهِ على حدٍّ سواءٍ، غيرَ أنَّ المَلِكَ الكاملَ أَكرَمَ وِفادَتَهُ، واستمعَ إليهِ؛ فَكانَ حديثٌ بَينَهُما عَن المَوَدَّةِ وَعَن

السَّلامِ الَّذي يَجبُ أَن يَسُودَ العالَمَ، بدلًا مِن الحُرُوبِ القاتلةِ وَالمُدَمِّرةِ للإِنسانِ والإِنسانيَّةِ.

إنَّ هذه الحادثةَ الغريبةَ وَالمُشَوِّقةَ -في آنٍ- تَدلُّ على مَدَى البِعادِ الَّذي حَصلَ بَينَ أهلِ أديانِنَا إِبَّانَ تلك القُرُونِ الوُسطَى، حيثُ طَغَتِ الحُرُوبُ، وَرَمَت بِثِقَلِهَا على المُؤمنين مِن كلِّ صَوبٍ؛ فَابتَعَدَ المَسئولُونَ عن الأَديانِ عَن خدمةِ ثقافةِ السَّلامِ وَعَن تَبَنِّيهَا، لكنَّ هذه الحادثةَ تَدلُّ أيضًا بِفضلِ القدِّيسِ فرنسيس الأسِّيزيِّ وَالمَلكِ الكاملِ على السَّواءِ على ما بَقِيَ مَأمُولًا بهِ في قَلبِ هَذَين الرَّجلَين، في قُلُوبِ جَميعِ النَّاسِ مِن ذَوِي الإِرادَاتِ الصَّالحةِ لِلعَودةِ إلى رُوحِ السَّلامِ، وَإِلى ما تُعلِّمُهُ الأَديانُ أَصلًا في هذا المَجالِ.

الجميعُ يَعرفُ الفَرقَ بِهذَا المَعنَى بَينَ الأَديانِ كما هي في خَاطِرِ اللهَّ أَيٍّ في صفاءِ يَنابيعِها وفي صُورَتِهَا البَهيَّةِ المُسجَّلةِ في الكُتُبِ كما في نُفُوسِ الأَولياءِ، وَبينَ الأَديانِ عَينِها كما يُفسِّرُها البعضُ على ما يَطِيبُ لهُم، أَو كما يَلجَأُ إليها الحُكَّامُ؛ لِيُبَرِّرُوا تَصرُّفاتِهِم وَالمَرَامِيَ الشَّخصيَّةَ والبعيدةَ لِسُلطَانِهِم، خارجَ دائرةِ الانصِيَاعِ إلى مشيئةِ اللهَّ كما يُعلِّمُهُ الضَّميرُ المُستقيمُ.

وَالجميعُ يَعرفُ أَيضًا أنَّ النَّاسَ أَعداءٌ لِمَا جَهلُوا، كما قالَ الإمامُ عليٌّ رضي الله عنه(*)، وأنَّهم أَيضًا -وَبِصُورةٍ أَولى- أعداءٌ لِمَن جَهِلُوا وَلِمَن تَوجَّهُوا إليهم بِأحكامٍ مُسبَّقةٍ لا عَلاقةَ لها بالحقيقةِ، ولا بِأَيِّ شكلٍ من أَشكالِ الواقعِ.

لذلك رَأَىٰ آباءُ المجمعِ الفاتيكانيِّ الثَّاني أنَّ العلاقاتِ التَّاريخيَّةَ بَينَ المسيحيَّةِ والإسلامِ قد عَرفَت في القُرُونِ السَّالِفَةِ أكثرَ من هُبُوطٍ وَارتقاءٍ، وأنَّ كلَّ الأزَماتِ الَّتي مَرَّ بها المسيحيُّون والمسلمون لم يَكُنْ مَنبَعُها الإنجيلَ ولا القرآنَ، بَلْ كانت وَلِيدَةَ الظُّرُوفِ المُفسِدَةِ وَسُوءِ فَهمِ الآخَرِ؛ مما يَدعُونَا جميعًا إلىٰ تَنقِيَةِ الذَّاكرةِ من كلِّ هذه الأحداثِ، وَالعَودةِ إلىٰ الأَصالةِ الدِّينيَّةِ؛ لِنَنطلقَ منها إلىٰ تاريخٍ جديدٍ، وإلىٰ عَلاقاتٍ يُباركُهَا الرَّبُّ، وَيَرضَى عنها؛ لأنَّها مَشيئتُهُ فينَا جميعًا، ولأنَّها مسئوليَّةٌ تَقعُ علينا معًا من أَجلِ خلاصِ العالَمِ وَتَقرِيبِهِ مِن اللهَّ بِوَاسطةِ الرِّسَالاتِ الَّتي يَتفَاهَمُ أَهلُهَا بِهَدي منها، ولا يتَخاصَمُونَ.

بِهذهِ الرُّوحِ نُدرِكُ كلَّ المَعانِي الحقيقيَّةِ لِلسَّلامِ، إنَّه سلامُ اللهَّ النَّازِلُ علينا نِعمةً فيَّاضةً مع رَحمتِهِ وَبَركاتِهِ، وهو غيرُ سلامِ العالَمِ الَّذي إنْ بُنِيَ فهو يُبنَىٰ علىٰ تَوازُنِ الرُّعبِ وَالقوىٰ، أَو علىٰ القوَّةِ المَفرُوضَةِ علىٰ الضُّعفاءِ فَرضًا فَيَتحَوَّل إلىٰ سلامِ العَبِيدِ. وكلُّها سلاماتٌ عابِرَةٌ لا ثَباتَ لها ولا حقيقةَ، بينما سَلامُ اللهَّ يُبنَىٰ علىٰ الإيمانِ بِأَنَّ البَشرَ أَبناءٌ لآدمَ كلُّهم، وقد كَرَّمَهُم اللهَّ لِيَكونُوا له عِبَادًا صَالِحِينَ، وَليتَعَارفُوا فيما بَينهم، وَلِيَتَّقُوا رَبَّهُم في أَعمالِهِم، وفي تَطوِيرِ الأرضِ لِصَالِحِهِم، وَنَفاذًا لِمَشيئتِهِ الإلهيَّةِ في الخَلِيقَةِ؛ فلا تَحِيدُ عنها مَشيئةٌ بَشَريَّةٌ ولا تَتَنكَّرُ لها.

المسيحيَّةُ مِن جهتِهَا تقرأُ في الإنجيلِ المُقدَّسِ أُنشُودةَ السَّلامِ الَّتي رَنَّمَهَا المَلائكةُ في سَمَاءِ بَيتِ لَحمٍ يَومَ ميلادِ السيِّدِ المَسيحِ وَفِي مَطلَعِهَا: «المجدُ للهِ في العُلَىٰ، وَعَلَىٰ الأرضِ السَّلامُ، وَالرَّجاءُ الصَّالحُ لِبَنِي البَشَرِ».

كما هي تَسمعُ كلامَ المُعلِّمِ القائلِ في عِظتِهِ على الجَبلِ: «طُوبَى لِفَاعِلِي السَّلام فإنَّهُم أَبناءَ اللهَّ يُدعَونَ».

وهي تُؤمنُ أَنَّ مِن ثِمَارِ الفِدَاءِ المُصَالحةَ بينَ الأرضِ والسَّماءِ، وَأنَّ مشيئةَ اللهَّ فيهم هي في أَن يُجمَعُوا من الرِّياحِ الأربعِ حيثُ يَنعَمُونَ بِسَلامِهِ إلى الأَبدِ.

وكذلك في الإِسلامِ؛ فإنَّ العالَمَ كلَّهُ يَنحَنِي إِجْلالًا لِكَونِ السَّلامِ فيهِ اسْمًا مِن أَسماءِ اللهَّ الحسنَى، وفي كتابِ المسلمينَ دَعوَاتٌ إلى السَّلامِ وَاضحةُ المَعَالِمِ؛ فلقد جَاءَ في سُورةِ يونس: دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ [يُونس: ١٠]، وَجاءَ في السُّورةِ عَينِهَا: **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**(25) [يُونس: ٢٥] ، كذلك في سُورةِ النِّساءِ وقد جاءَ فيها أمرٌ من اللهَّ بِعَدمِ الاعتداءِ على مَن يُلقِي السَّلامَ أَكانَ مُؤمنًا أَمْ غيرَ مُؤمنٍ، وهذا نصُّ الآيةِ الكريمةِ: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ** [النِّساء: ٩٤] .

يَظهرُ ممَّا تَقدَّمَ أنَّ دِيَاناتِنَا مُؤمنةٌ بِالسَّلامِ غايةً للخليقةِ، وهي تلتزمُ السَّلامَ عقيدةً وَمَسلكًا لِجميعِ المُؤمنينَ، إلاَّ أنَّ بعضَ ما يُعرقِلُ قضيَّةَ السَّلامِ هُو التَّباعدُ التَّاريخيُّ الَّذي حَصلَ فيما بَينَنا على رَدَحٍ من الزَّمنِ كانَ كافيًا لِلتَّراجعِ في مَعرفةِ الآخر مَعرفةً صحيحةً؛ فَظهرَتِ الأفكارُ الخاطئةُ وَالأحكامُ غيرُ الدَّقيقةِ بِشكلٍ أَساءَ إلى الحقيقةِ وإلى التَّعامُلِ البَنَّاءِ بَينَ الجميعِ.

وَجَاءَت حُرُوبُ القُرُونِ الوسطَىٰ لِتَزيدَ من حالةِ التَّباعُدِ سُوءًا، وكذلك في القُرُونِ الحديثةِ؛ حيثُ فَعلَ الاستِعمَارُ فعلَهُ، وَاستَغَلَّ الحُكَّامُ الدِّينَ لِمَصالِحِهِم بينما الدِّينُ من كلِّ هذه القضيَّةِ بَرَاءٌ؛ لذلك تَعثَّرَت ثقافةُ السَّلامِ في العالَمِ بِفعلِ تَقصيرِ المَسئولينَ عن الأَديانِ في ضَخِّ هذه الثَّقافةِ بِالقِيَمِ الدِّينيَّةِ الَّتي لا بدَّ منها لِتَنتَعِشَ فَتُنعِشَ بِدَورِهَا النَّاسَ في سَعيِهِم نحوَ السَّلامِ.

نَحنُ اليومَ إذن أَمامَ سَعيٍ جديدٍ يَصلُ إلىٰ ذروةِ تَجَلِّيهِ عَبرَ هذا التَّلاقِي الكبيرِ بَينَ المسيحيَّةِ بِشَخصِ قداسةِ البابا فرنسيس، وَالإِسلامِ بِشَخصِ سماحةِ شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيِّب، وهو يَبغِي إِزَالةَ العوائقِ أَو ما تَبَقَّىٰ منها أَو ما استَجدَّ في الزَّمنِ الرَّاهنِ، لإِعَادةِ الحوارِ بَينَ أَديانِنَا إلىٰ زَخمِهِ الأوَّلِ، وذلك انطِلاقًا من مَعرفةٍ مُتبادَلَةٍ عن بَعضنَا لِبَعضٍ، تُزِيلُ الالتباساتِ الفكريَّةَ -وحتَّىٰ العقائديَّةَ- لِتُفهَمَ علىٰ حقيقتِها مِن قِبَلِ الجميعِ.

وفي السِّياقِ عينِهِ تُصَحِّحُ التَّفاسِيرَ الخَاطئةَ، وَتُوضِّحُ مُلابَسَاتِهَا؛ فَلا يَعُودُ أَهلُ المَصالحِ وَلا أَهلُ السُّوءِ إلىٰ المُتَاجرَةِ بها، وإلىٰ جَرِّ الأَديانِ إلىٰ ما ليسَ فيها من مَوَاقفَ مُتَضاربةٍ أو حتَّىٰ مُتَعادِيَةٍ، وَمِن ثَمَّ نَصِلُ إلىٰ تَعلِيمِ الأديانِ في المدارسِ وَالجامعاتِ بِصُورةٍ وَاضحةٍ تَنقُلُ إلىٰ الأجيالِ الجديدةِ كلَّ الغِنَىٰ الفكريِّ والإِنسانيِّ لِتَعَاليمِنَا المُشرقَةِ السَّنيَّةِ.

إِنَّ السَّلامَ الحقيقيَّ تَخدمُهُ ثقافةٌ تُنشَرُ وَتُغذَّىٰ بِرُوحِ الإِيمانِ بِالإِنسانِ وَالأُخوَّةِ وَالتَّضامُنِ البَشريَّين من دُونِ حُدُودٍ، لكنَّهُ أَيضًا -وَبِخاصَّةٍ- بِناءٌ إِنسانيٌّ يَرتفعُ

يَومًا بِيَومٍ عَبرَ الإِراداتِ الصَّالحةِ وَالمُتَصالحَةِ وَالمُلتَقِيةِ على الأهدافِ النَّبيلةِ عَينِهَا، وَلَو عَبْرَ تَعدُّدٍ دِينيٍّ أَمرَ اللهُ به فَكانَ.

لِهذَا السَّببِ فإِنَّنَا نُعَوِّلُ على هذا المُؤتمرِ المُباركِ، وعلى القَيِّمينَ عليهِ، وَالدَّاعِينَ إِليهِ؛ لكي تَنْحُوَ الإِنسانيَّةُ في شَرقِنَا وفي العالَمِ مَنحَى السَّلامِ بِثِقةِ المُؤمنينَ، وَرَجاءِ المُتَوَكِّلِينَ على رَبِّهِم تَوَكُّلًا حَصِينًا.

فَنُحيِّيكُم خِتَامًا كَمَا قُمنَا بهِ افتِتَاحًا تَحيَّةَ المحبَّةِ وَالاحترامِ، وَلْيَنزِلْ علينا جميعًا سَلامُ اللهَّ الَّذي نسألُهُ عَزَّ وَجَلَّ أن يَمُنَّ علينا برضوانِهِ، ويُغدِقَ علينا فيضًا من نِعَمِهِ وبَرَكاتِهِ.